الحلقة (٣)

هذه الحلقة سنتحدث عن أطوار التأليف في النحو ونركز على الطورين الأول والثاني من أطوار التأليف في النحو لأن التأليف في النحو أربعة أطوار.

أطوار التأليف في النحو أربعة أطوار:

الطور الأول: بصري يقع في حوالي مائة سنة من هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم وينتهي بحدود ١٥٠ أو ١٣٠ بينهما، هذا يسمى بطور الوضع والتكوين لأن فيه وضع البذرة الرئيسية لهذا العلم ولم يكن يتوسع فيه كثيراً لهذا الطور وهو الطور البصري كما ذكرت قبل قليل.

الطور الثاني: طور النشأة والنمو وهو طور بصري كوفي اشتركت فيه المدرستان البصرية والكوفية.

الطور الثالث:طور النضج والكمال فاستوى النحو على سوقة في هذا الطور وهو طور أيضا بصري وكوفي وسنحدده ونحدد مسائله وما يتميز به إن شاء الله في الحلقة القادمة.

الطور الرابع: من أطوار التأليف في النحو هو بعد أن اكتمل نمو النحو صار دور البسط يعني التوسع والترجيح والبسط في التصنيف، وهذا الطور لم يعد للبصرة والكوفة فيه مجال، لأن النحو وأهل النحو بل والأمة انتقلت إلى بغداد وشاع أيضا هذا العلم في كثير من بلدان العالم ووصل الشام ومصر والمغرب العربي والأندلس.

فإذن هذا الطور لم يكن بصرياً أو كوفياً وإنما بغدادي شامي مصري مغربي أندلسي.وسنتحدث عنها بالتفصيل أن شاء الله تعالى.

نبدأ مستعينين بالله عز وجل في الحديث عن الطور الأول وهو طور الوضع والتكوين.

١- طور الوضع والتكوين: **وهو طور** بصري **ومدته** لا تقل عن مائة عام **وهو مقسم طبقتين:-**

الطبقة الأولى: هم علماء أمثال أبو الأسود الدؤلي ومن تبعهم ومن قريب منهم لكن نقول أن هذا الطور يبدأ من عصر أبي الأسود الدؤلي وهو الواضع الأول كما ذكرنا في غير هذه الحلقة لهذا العلم إلى أول عصر الخليل بن أحمد.

من هو الخليل بن أحمد؟ هو أستاذ سيبويه فالعصر الأول أو الطور الأول كله سواء طبقة أولى أو طبقة ثانية يبدأ من عصر أبي الأسود الدؤلي في حدود ٤٠هـ وينتهي إلى حدود ١٤٠ هـ وهو أول عصر الخليل بن أحمد.

ومكانه هو البصرة **وأما رجاله فهم** طبقتان لكل طبقة من هاتين الطبقتين حوالي ٥٠ عام، طبعا التاريخ في العلوم كلها ليس باليوم أو الشهر والسنة بل هو تقريبي، فأطوار التأليف في العلوم لا يمكن أن تكون باليوم والساعة والدقيقة والأسبوع أو الشهر، لا بل هي إنما تقديرية فيكون فيها الفرق خمس سنوات عشر سنوات ثلاث سنوات في هذا الحدود.

فنقول وبالله التوفيق الطبقة الأولى من البصريين تتكون من أبي الأسود الدؤلي ونصر بن عاصم وعنبسة بن معدان الفيل ويحيي بن يعمر وهؤلاء كانوا رجال الطبقة الأولى من الطور الأول.

◄ كيف كانت مؤلفاتهم؟

لم يصل إلينا من مؤلفاتهم شيء إلا ما نقل عن بعضهم نقولات قليلة جدا في بعض الكتب، لكن أن يصل إلينا مؤلف ألفه أبو الأسود الدؤلي أو ألفه يحيي بن يعمر أو عنبسة بن معدان الفيل أو غيرهم لم يصل إلينا شيء من ذلك.

لكن وصل إلينا بعض ما كتبوه في مؤلفاتهم منقولاً في كتب أخرى للطبقات التي جاءت بعدهم.

ماذا كانوا يكتبون؟

كانوا يكتبون مسائل قليلة مختصرة يتحدثون فيها أحيانا عن الاسم وأحيانا عن الفعل وأحيانا على تقسيمات الاسم أو علامات الاسم أو علامات الفعل أو ما المراد بالاسم أو ما المراد بالفعل وعن الفاعل والمفعول وعن المبتدأ وعن الخبر لكنه بدون شك ليس هو النحو الذي بين يدنا اليوم.وإنما هي آراء مبثوثة هنا وهناك لا تقوم لها قائمة وإنما مجرد آراء مجموعة من هنا وهناك.

هل كانوا يكتبون؟

نعم كانوا يكتبون وكانوا يتناقلون مؤلفاتهم، ومما يدل على ذلك أنه كان هناك عالم في مدينة تسمى حديثة جنوب العراق هذه المدينة كان هناك شخص فيها يهوى جمع الكتب ففي يوم من الأيام وجد من الكتب التي جمعها وريقات (أربع ورقات) يقول كما نقله صاحب الفهرست ابن النديم نقل أنه وجد أربع ورقات يقول يحسبها من ورق الصين مكتوب فيها بخط يحي بن يعمر عن أبي الأسود الدؤلي يقول فيه كلاما عن الفاعل والمفعول بخط يحي بن يعمر عن أبي الأسود الدؤلي وهذا دليل على أنهم يكتبون شيئاً في هذا العلم وأنهم كانوا يتناقلونه وأن بعضهم يملي بعضاً وأن للأستاذ طلاباً يستمعون منه ويأخذون عنه.

وهذا يدل على أنهم كانوا يؤلفون ولكن كتبهم لم تصل إلينا وإنما ما وصل إلينا هو منثوراً في الكتب.

حينما كانوا يؤلفون وهم مختلفون هل كان بينهم خلاف في مسائل لغوية؟

لم يؤثر عنهم أنهم كان بينهم خلاف بل كانوا يسلمون لبعضهم فيما يرونه لأنهم لا يزالون معاصرين للعربية الفصحى لم يخرجوا عن العربية الفصحى وهم لا يزالون يأخذون من صميم العرب الذين لم يدخل عليهم اللحن.

كما ذكرنا قبل قليل لم يؤثر أن لهم مؤلفات وهذه هي الطبقة الأولى من العصر الأول الطبقة التي فيها أبو الأسود الدؤلي والأربعة المشهورين المعروفين عنبسة بن معدان ونصر بن عاصم وعبد الرحمن بن هرمز ويحي بن يعمر وهذه طبقة متقاربة، وبالمناسبة نصر بن عاصم كان أسهم إسهاما جيداً غفر الله لنا وله في ضبط القرآن الكريم وفي إعجامه.

ما المراد بالإعجام؟

يعني نقطه وضبطه ومن أجل هذا جاءنا اختلاف في بعض القراءات على سبيل المثال قوله تعالى " يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة " هذه قراءة حفص بن عاصم.

قرئت هذه الآية قراءة فتثبتوا..ما السبب؟

أن ما في نقط، لم يكن يوجد نقط وهذه القراءة مكتوبة بدون نقط تحتمل احتمال آخر..تبينوا تثبتوا.!

الحاصل الطبقة الأولى مضت ولم يحصل بينهم خلاف ولم يؤثر عنهم مؤلفات ثم جاءت بعدهم الطبقة الثانية وهي في حدود الخمسين يعني من عام ٩٠ إلى ١٤٠ تقريباً. أيضا كل هذا تقريبي.

هذه الطبقة كانوا أكثر عدداً من سابقيهم وأُثر عنهم مؤلفات كثيرة وبدأ الخلاف يدب فيما بينهم ومن أشهرهم عبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي وكان بينه نقاش هو والفرزدق الشاعر الذي يرتكب أحيانا من الضرورات لكن عبدا لله بن أبي إسحاق الحضرمي ما يرضى أن ترتكب الضرورة لأنه يريد الحفاظ على اللغة فكان الفرزدق يهجوا عبد الله بن إسحاق الحضرمي لأنه تتبعه ويلاحظ عليه في شعرة ومما قاله في بعض الأيام قال:

لو كان عبد الله مولى هجوته *** لكن عبدا لله مولى المواليا

يعني عبد العبيد ومع ذلك لم يتركه على هذا البيت بالذات فقال له المفروض أن تقول موالي موالٍي (بكسر الياء) ولكن لو

قاله الفرزدق لا نكسر عليه البيت !.الموضوع أن عبدا لله بن أبي إسحاق الحضرمي يقال عنه أول من فرّع النحو يعني شعبة وأول من استعمل القياس.

موجود من العلماء عيسى بن عمر الثقفي في هذه الطبقة الثانية من الطور الأول الذي ألف كتابين واحد منهما اسمه الجامع والثاني اسمه الإكمال قال عنهما الخليل بن أحمد رحمه الله

ذهب النحو جميعاً كله   غير ما ألف عيسى بن عمر

ذاك إكمالا وهذا جامعاً   فهما للناس شمس وقمر

وهو يثني على هذين الكتابين رحمة الله عليه.

ومن علماء هذه الطبقة أيضا أبو عمرو بن العلاء ويقال إنه أول من توسع في القياس أبو عمرو بن العلاء توفي سنة ١٥٤هـ.

وأبو عمرو بن العلاء صار له قصة مع الحجاج، الحجاج يقال عنه: إنه كان واحدا من أربعة لا يلحنون في جد ولا هزل..من هم؟

عبد الملك بن مروان، ابن القرنية، الحجاج، الشعبي.

هؤلاء الأربعة لم يكونوا يلحنون في جد ولا هزل.

فاستدعى أبا عمرو بن العلاء فقال يا أبا عمرو إني سمعت أنك تقرأ قوله سبحانه وتعالى "إلا من اغترف غَرفة بيده" لتأتيني لها بشاهد أو لأ قطعن لسانك !

قال فخرج أبو عمرو بن العلاء هائماً على وجهه يبحث لعله يجد شاهداً.

ففي يومٍ من الأيام وإذا هو يسمع شاعراً يقول:

ربما تكره النفوس من الأمر   له فَرجة كحل العقال.

فجاء إليه مسرعاً فقال ما فرجة هذه؟

قال: إنهم عندنا كل قومنا يقولون بفتح الفاء يعني بفتح فَرجة ولا يقولون فُرجة (بضمها).

قال:ما ذاك؟ يعني إيش الأمر الذي تظن فيه فرجة كحل العقال؟

قال: يقولون إن الحجاج مات !.

قال أبو عمرو بن العلاء "**والله لأنا أشد فرحاً بقوله فرجة من خبره الذي قال لنا إنه مات الحجاج**"

هؤلاء أشهر هذه الطبقة وصار القياس موجوداً وصار التأليف موجوداً وصار الاختلاف موجوداً بهذه الطبقة وعلمائها أشهر من الطبقة الأولى.

انتهى الطور الأول من أطوار التأليف في النحو.

٢- طور النشأة والنمو:

وكتب من عصر الخليل بن أحمد إلى عصر أبي عثمان المازني في البصرة لأنه صار هذا الطور بصرياً كوفياً.

فلابد أن نؤرخ في البصرة ونؤرخ في الكوفة.

فأما في البصرة فهو من عصر الخليل **إلى** عصر المازني، **وأما في الكوفة فهو من أول مدرسة كوفية كان رئيسها يقال له** أبو جعفر الرؤاسي **واستمرت المدرسة الكوفية الأولى إلى عصر** ابن السكيت، **بل الطور الأول في الكوفة إلى عصر ابن السكيت.**

ما مميزاته ؟

أولا: كان النحو والصرف معاً وكانت أكثر علوم العربية كلها تؤلف في كتب واحدة، وبدأ الآن ينتقل التأليف فيكون الصرف

منعزلاً عن النحو.

ثانياً: بدأ الآن الخلاف وإن كان يسيراً بين المدرستين البصرية والكوفية.

في بداية الأمر كان الخلاف يسيراً..لماذا؟

لأن المدرسة الكوفية الأولى تلاميذ للمدرسة البصرية أخذوا نحوهم عن البصريين وما داموا أخذوا نحوهم فلابد أن يحترموهم ويقدروهم ولا يناقشوهم.

فإذن لا خلاف كبير ولكنه موجود بين المدرستين البصرية والكوفية.

أيضا نحن قلنا في الأطوار الأولى كانت الكتب النحوية تشتمل على كثير من علوم العربية في نحو وصرف ولغة وأدب وتاريخ وأشعار ونوادر وتراث وما شاكل ذلك.

الآن بدأ يستقل علم النحو والصرف في الغالب يكون مع بعض وبقية الكتب كتب أدبية ليس فيها نحو إلا قليل ولا صرف إلا قليل ومعظمها أدب وهنا صارت مستقلة ليس فيها من تاريخ الأدب ولا الأشعار ولا الأخبار أي شيء وإنما هي نحو وصرف أو نحو وحده وصرف وحده.

الخلاف كما ذكرنا قبل قليل موجود ولكن ليس كبير بين المدرستين النحوية البصرية والنحوية الكوفية وهذه أوقاتهم.

ما مميزات هذه العصر؟

من ميزاته التنافس بين البلدتين بدأ ولكنه قليل، كل مدرسة تريد أن تكون هي الحائزة على قصب السبق في هذا العلم فصار التنافس بين المدرستين البصرية والكوفية وبخاصة في أواخر هذه المرحلة.

هناك من العلماء الكوفيين من صب اهتمامه على مسائل الصرف ولذلك صاروا يقولون إن أول من ألف في الصرف من الكوفة.ونسبوه إلى معاذ الهراء.

ولكن في الحقيقة إننا بتتبع التأليف في الصرف وجدنا أن السبق لعبد الله بن أبي إسحاق الحضرمي الذي ذكرناه قبل قليل في الطور الأول الذي قلنا عنه إنه أول من استعمل القياس.

فهو ينسب إليه أنه ألف كتاب سماه "الهمز" فهو أول من ألف في هذا العلم.

لماذا أكثر المؤرخين يقولون أن معاذ الهراء أول من كتب في الصرف ؟

الحقيقة أن عناية معاذ الهراء بالمسائل الصرفية وما يسمونه بمسائل التمارين كان السبب في ذلك.

لذلك من أكثر من اعتني بالصرف وذكر مسائله.

من أبرز رجال هذا الطور سيبويه الذي يدعونه إمام النحاة.

ولازلت ولا يزال غيري من النحويين ومن سبقنا على مر العصور عالة على كتاب سيبويه في كثير من هذا العلم.وعلم النحو بل وعلم الصرف بل وعلم اللغة لا يزال كثيراً منا عالة على سيبويه رحمه الله تعالى.سيبويه هذا رحل من البصرة إلى بغداد والتقى بالكسائي وصار بينهما حوار ومناظرة سموها **بالمسألة الزمبورية.**

المسألة الزمبورية هذه خرج سيبويه رحمه الله مهزوماً ويقال إنه بقي بعدها جزء يسيراً من الزمن ثم توفى ولا يزال مهموماً لأنه لم يوفق في هذه المسألة.

وإن كان يقال: إن هذه المسألة سبب عدم نجاحه فيها أن تلاميذ سيبويه أغروا الأعراب الذين حكموهم في هذه المسالة أغروهم بالمال بأن يشهدوا ضد سيبويه لأن الكسائي رحمه الله كان أستاذا لهم، الكسائي لا شأن له بهذه المسألة لأنهم هم الذين طلبوا من الأعراب أن يشهدوا لسيبويه.

ما المسألة الزمبورية؟

المسألة الزمبورية هي أن الكسائي لما جاءه سيبويه فناظره في مسألة قال له "**ما تقول في قول العرب كنت أظن أن العقرب أشد لسعاً من الزمبور فإذا هو هي، هل يجوز أن تقول فإذا هو إياها؟**"

فيقول سيبويه لا يجوز إلا (فإذا هو هي) فيستفتون الأعراب في هذه المسألة فأفتوهم في اليوم التالي، لكن يقال أن تلاميذ سيبويه أغروهم بالمال وقالوا لهم قولوا القول ما قال الكسائي.

فأحضروهم وتناقشوا في هذه المسألة ولم يقل الأعراب إلا أنهم قالوا القول ما قال الكسائي، بل يقال إنهم ما نطقوا بالجملة نفسها لأنهم لم تكن ألسنتهم تطيعهم بأن يلحنوا لأن فيها لحناً، كما يرى معظم النحويين الذين يرون أن سيبويه على حق في هذا. المناظرات والمناقشات بدأت تنتشر قليلاً قليلاً بين المدرستين ولكنها لم تكن واضحة جدا لأن في بداية المدرسة كان علماء المدرسة الكوفية يدينون بالحق لعلماء المدرسة البصرية لأنهم هم الذين علموهم النحو.

الكوفيون في الطور الأول كانوا يجمعون الأشعار و الأخبار والنوادر ولذلك استفادوا ، ولما ألفوا كتباً في النحو صار عندهم شواهد كثيرة من كلام العرب ، فصار نحوهم أسهل من النحو البصري لكثرة الشواهد